

بناء الهوية في سياق التنشئة الاجتماعية: مقارنة من منظور التمثلات الاجتماعية

Identity Building in the Context of Socialization: An Approach from the Perspective of Social Representations

علي بن ناصر *

* جامعة بالوادي (الجزائر)، ali-bennacer@univ-eloued.dz

تاريخ الاستقبال: 2025/07/03؛ تاريخ القبول: 2025/09/16؛ تاريخ النشر: 2025/10/08

ملخص: يهدف هذا المقال الى تحليل العلاقة بين مفهومي الهوية والتنشئة الاجتماعية الذين يعتبران من القضايا المهمة في العلوم الاجتماعية، خاصة عند دراستها من خلال منظور التمثلات الاجتماعية. هذه الأخيرة التي تعد آلية معرفية تساعد على فهم كيفية تشكل الوعي الفردي والجمعي عبر عمليات التنشئة. ومن خلال هذه الزاوية، تظهر الهوية كنتاج اجتماعي يتم بناؤه داخل السياقات الثقافية عبر تفاعلات مستمرة بين الفرد والمجتمع. لذا فإن فهم هذه العلاقة يساهم في تفسير ديناميكيات الهوية وتحولاتها في عالم متغير.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ التنشئة الاجتماعية؛ التمثلات الاجتماعية

Abstract: This article aims to analyze the relationship between the concepts of identity and socialization, which are important issues in the social sciences, especially when studied through the prism of social representations. The latter is a cognitive mechanism that helps to understand how individual and collective consciousness is formed through processes of upbringing. Through this angle, identity emerges as a social product that is constructed within cultural contexts through continuous interactions between the individual and society. Understanding this relationship contributes to explaining identity dynamics and transformations in a changing world.

Keywords: identity; socialization; social representations

I- تمهيد:

الاهتمام بموضوع الهوية وإشكالاته المختلفة أخذ يتزايد في عالمنا المعاصر عبر جدل محتدم عابر للتخصصات في ميادين شتى في العلوم الانسانية والاجتماعية. فالهوية حاضرة بقوة في خطاباتنا التربوية والثقافية والسياسية والدينية... وهو ما جعل المفهوم يتضخم بشكل لافت، فهو مفهوم حساس وغامض في آن واحد. كما يوصف بأنه زبقي عصي عن الحصر والتحديد. وخطورته لا تتوقف عند حد الاختلاف والتباين وإنما قد تنقل المفهوم الى حدود الصراع والتقاتل فالهوية تمثل أحد أكثر القضايا حساسية في نشأة المجتمعات واستمرارها فهي مرتبطة بالوجود الاجتماعي للأفراد والجماعات والشعوب والدول والأمم... وهو ما جعل منها موضوعا لمقاربات متعددة ومتباينة.

من جهة أخرى يبرز مفهوم آخر مرتبط بالهوية وآلية اكتسابها أو تغييرها فإكتساب الهوية الفردية والاجتماعية يمر عبر الية اجتماعية أساسية هو ما يطلق عليه اسم التنشئة الاجتماعية. فهي العملية التي تقوم بإكساب الفرد عناصر الثقافة والمهارات المطلوبة للتفاعل مع محيطه، من خلال أنواع النشاطات التي تتطابق مع الهوية، فهي مصنع الهوية الفردية والجماعية الذي يصوغ الفرد وفقا لمتطلبات الثقافة السائدة بهدف ادماجه وقبوله اجتماعيا.

لقد برز الكثير من النقاش النظري حول العلاقة بين مفهومي الهوية والتنشئة الاجتماعية في أكثر من منحنى علمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية من خلال هذا المقال سنتطرق الى هذه العلاقة من منظور التمثلات الاجتماعية التي تعد كميكانيزم معرفي اجتماعي قدم مساهمة جديدة في تفسير العديد من الظواهر الاجتماعية التي بقيت حبيسة التحليل الكلاسيكي في مسارات علمية منفصلة.

تشمل التمثلات الاجتماعية المعتقدات والقيم والممارسات المشتركة التي يتم بناؤها والحفاظ عليها داخل المجتمع. فهي بمثابة إطار لفهم العالم وتفسيره. إن العلاقة بين الهوية والتنشئة الاجتماعية من منظور التمثلات الاجتماعية هي مجال دراسي معقد ومتعدد الأوجه. وبحث هذه العلاقة أمر بالغ الأهمية من اجل فهم أعمق لديناميات السلوك البشري والهياكل المجتمعية.

1. مفاهيم أساسية:

قبل التطرق الى بيان العلاقة بين المفاهيم الثلاثة: الهوية، التنشئة الاجتماعية، والتمثلات الاجتماعية يجدر بنا التعرف على الدلالات المفهومية لها وتعريفاتها وواجه التناول النظري لكل منها.

1- التمثلات الاجتماعية:

مفهوم التمثلات الاجتماعية من المفاهيم المحورية في علم النفس الاجتماعي، الذي قدمه موسكوفيتشي بأنه: "نظام من القيم والأفكار والممارسات التي تؤدي وظيفة مزدوجة: أولاً، إنشاء نظام يسمح للأفراد بالتوجه في عالمهم المادي والاجتماعي والسيطرة عليه، وثانياً، تسهيل التواصل بين أعضاء المجتمع من خلال توفير رمز للتبادل الاجتماعي وتسمية وتصنيف مختلف جوانب عالمهم وتاريخهم الفردي والجماعي"¹.

قدمت جودليت تعريفاً للتمثلات الاجتماعية بأنها: "أشكال من المعرفة العملية الموجهة نحو التواصل وفهم وإتقان البيئة الاجتماعية والمادية والفكرية."² هذا التعريف يؤكد على ثلاثة جوانب رئيسية:

المعرفة العملية: التمثلات ليست مجرد أفكار مجردة، بل هي أدوات عملية تساعد الأفراد على التعامل مع واقعهم.

التواصل: تلعب التمثلات دوراً أساسياً في تسهيل التواصل بين الأفراد داخل المجتمع.

فهم وإتقان البيئة: تساعد التمثلات الأفراد على فهم العالم المحيط بهم (سواء كان اجتماعياً، مادياً، أو فكرياً) والتعامل معه بفعالية.

عرف أبريك (1994) التمثيلات الاجتماعية بأنها: "مجموعة منظمة من المعلومات والمعتقدات والآراء والمواقف تجاه موضوع معين، وهي تشكل نظاماً مرجعياً يسمح للفرد بتفسير الواقع وفهمه والتكيف معه." ويضيف أن "التمثيلات الاجتماعية تتكون من نواة مركزية ثابتة نسبياً، وعناصر محيطية أكثر مرونة تسمح بالتكيف مع السياقات المختلفة"³ هذا التعريف يؤكد على أن التمثيلات الاجتماعية ليست مجرد مجموعة عشوائية من الأفكار، بل هي منظمة بشكل يسمح بفهم الواقع. كما أنها تعمل كنظام مرجعي يساعد الأفراد على تفسير العالم المحيط بهم. وتساعدهم على التكيف مع بيئتهم الاجتماعية والمادية.

في دراسة لـ فارغاس (Vargas, 2015) حول دور التمثيلات الاجتماعية في بناء الهوية. خلص إلى أن: "التمثيلات الاجتماعية توفر إطاراً مرجعياً للأفراد والجماعات لفهم ذواتهم والآخرين، وبالتالي تساهم بشكل مباشر في تشكيل الهوية الفردية والجماعية". فهي تعمل كنظام من القيم والمعتقدات التي تساعد الأفراد على فهم أنفسهم والعالم من حولهم. هذا الإطار المرجعي يسمح للأفراد بتصنيف وتفسير تجاربهم وتجارب الآخرين. أما الدور الذي تلعبه التمثيلات الاجتماعية في تشكيل الهوية فيتم عبر مستويين:

على المستوى الفردي: تساعد التمثيلات الاجتماعية الفرد على تحديد موقعه في المجتمع وفهم دوره فيه.

على المستوى الجماعي: تعزز التمثيلات الشعور بالانتماء إلى جماعة معينة، مما يساهم في بناء الهوية الجماعية.

كما تساعد التمثيلات الاجتماعية في فهم الآخرين وتصنيفهم، مما يؤثر على كيفية تفاعل الأفراد معهم.

دراسة فارغاس تؤكد على الدور المركزي للتمثيلات الاجتماعية في بناء الهوية، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي⁴ وهذا ما يتفق مع نظريات أخرى في نفس السياق مثل نظرية الهوية الاجتماعية لتاجفيل وتيرنر، التي تؤكد على أهمية الانتماء الجماعي في تشكيل الهوية.

2- الهوية:

تعد الهوية مفهوماً محورياً في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتحمل معاني متعددة تختلف باختلاف السياقات. فهي مفهوم أساسي لفهم الذات البشرية، متعددة الأوجه وذات أبعاد نفسية واجتماعية معقدة. على المستوى الفردي، تتكشف الهوية كشعور بالذات والاستمرارية، بينما على المستوى الاجتماعي، تعكس كيفية تفاعل الأفراد مع العالم وعلاقاتهم بالجماعات الاجتماعية. إشتقاقياً، تعود كلمة "هوية" إلى الأصل اللاتيني الذي يعني حالة الشيء كما هو، أو التشابه، أو إعطاء معنى للشيء ومساءلة الاختلاف⁵

أما فلسفياً نجد المعاجم تعرف الهوية بأنها: صفة تعطى لكائن أو لنوع أو لشيء ليعرف بها وعندما يكون الشيء متشابهاً مع الآخر في كل شيء تكون له نفس الهوية مثل التوائم أو تشابه الأسماء والموضوعات تكون متطابقة من حيث الهوية، والهوية كمبدأ فلسفي تعبر عن ضرورة منطقية بعينها فهي تؤكد أن الموجود هو ذاته دوماً، لا يلبس به ما ليس منه فهو عين ذاته كما تقول مقولة الهوية فالشخص هو مهما اعتراه من تغيرات⁶.

يقدم الجابري تعريفا يبرز فيه البعد الديناميكي للهوية قائلا: «الهوية وجود وماهية. وفي المجال البشري مجال الحياة الاجتماعية على الأقل، الوجود سابق للماهية دوما، الشيء الذي يعني أن الماهية ليست معطى نهائيا بل هي شيء يتشكل.⁷ كما أبرز الجابري أهمية «الآخر» في تشكل الهوية وتحديد معالمها وي طرح سؤالاً جوهرياً: "هل الهوية شيء آخر غير رد الفعل ضد 'الآخر'؟" بمعنى أن الهوية قد تكون، في جوهرها، نتيجة للتفاعل مع "الآخر" ومحاولة لتأكيد الذات أو "الأنا" في سياق أوسع وأعمق.⁸

أما كاستلز (2010)، يعرف الهوية بأنها عملية بناء المعنى استناداً إلى سمة ثقافية أو مجموعة من السمات الثقافية المرتبطة التي تعطى الأولوية على مصادر المعنى الأخرى. ويشير إلى أن الأفراد أو الفاعلين الجماعيين يمكن أن يمتلكوا تعددية في الهويات، لكن هذه التعددية غالباً ما تؤدي إلى توتر وتناقضات في تمثيل الذات والعمل الاجتماعي.⁹

ويعرفها جينكنز (2014) بأنها "الطرق التي يمكن من خلالها تمييز الأفراد والجماعات في علاقاتهم مع الآخرين، فهي فهمنا لمن نحن ومن هم الآخرون، وفهم الآخرين لأنفسهم ولنا"¹⁰.

أما تاجفل (Tajfel, 1981) فيعرف الهوية الاجتماعية بأنها ذلك الجزء من مفهومنا الذاتي الذي يأتي من عضويتنا في المجموعات الاجتماعية، والقيمة التي نضعها على هذه العضوية¹¹

3- التنشئة الاجتماعية

تعرف التنشئة الاجتماعية بأنها العملية التي يتم من خلالها إكساب الفرد ثقافة مجتمعه وقيمه ومعاييره، ليصبح قادراً على التكيف والاندماج في الحياة الاجتماعية.

يعرف بيرغر و لوكمان التنشئة الاجتماعية بأنها: "العملية الشاملة التي يتم من خلالها إدماج الفرد في العالم الموضوعي لمجتمع ما أو قطاع منه"¹².

يرى دوركايم أن التنشئة الاجتماعية هي: "عملية تحويل الكائن البيولوجي إلى كائن اجتماعي من خلال غرس المعايير والقيم والأدوار الاجتماعية"¹³. التحويل من البيولوجي إلى الاجتماعي: يؤكد على أن التنشئة الاجتماعية تجعل الفرد كائناً اجتماعياً قادراً على التفاعل مع الآخرين. وغرس المعايير والقيم: يشير إلى دور التنشئة في نقل القواعد الاجتماعية التي تحكم السلوك.

يعرف باندورا التنشئة الاجتماعية بأنها: "عملية تعلم وتعليم مستمرة، يكتسب الفرد من خلالها أنماط السلوك المختلفة عن طريق التفاعل الاجتماعي والملاحظة والتقليد والتعزيز"¹⁴.

أما كلود دوبار (Dubar, 2002) فيعرف التنشئة الاجتماعية بأنها: "عملية بناء الهوية الاجتماعية للفرد من خلال التفاعلات الاجتماعية والمؤسسات التي ينخرط فيها، حيث يكتسب الفرد الأدوار والقيم والمعايير التي تمكنه من الاندماج في المجتمع". ويؤكد دوبار على أن التنشئة الاجتماعية ليست مجرد نقل للقيم والمعايير، بل هي عملية بناء للهوية الاجتماعية للفرد. ويشير كذلك إلى دور المؤسسات الاجتماعية (مثل العائلة، المدرسة، العمل) والتفاعلات اليومية في تشكيل الهوية. كما أن الهدف النهائي للتنشئة الاجتماعية حسب دوبار هو تمكين الفرد من الاندماج في المجتمع بشكل فعال.¹⁵

التنشئة الاجتماعية عملية معقدة تتم من خلال عدة مؤسسات اجتماعية، ولكل منها دورها في تشكيل شخصية الفرد وهويته. وأهم هذه المؤسسات:

- الأسرة: تعتبر المؤسسة الأولى للتنشئة الاجتماعية، حيث يكتسب الفرد القيم الأساسية، المعايير الأخلاقية، والمهارات الاجتماعية الأولية. تشكل الأسرة الهوية الأولية للفرد وتوفر له الشعور بالأمان والانتماء.
 - المدرسة: تلعب دوراً رئيسياً في توسيع دائرة التنشئة الاجتماعية من خلال تعليم المعرفة، المهارات، والقيم الاجتماعية الأوسع. وتساهم في تشكيل الهوية الأكاديمية والاجتماعية للفرد، وتعزز الانضباط والتعاون.
 - جماعة الرفاق: توفر للفرد فرصة لتشكيل هوية مستقلة عن الأسرة، وتعلم مهارات التواصل والتفاوض. وتساعد في تطوير الهوية الاجتماعية وتكوين العلاقات خارج إطار الأسرة.
 - وسائل الإعلام: تنقل القيم والمعايير الثقافية السائدة، وتؤثر على تصورات الفرد للعالم. وتشكل الهوية الثقافية للفرد وتؤثر على سلوكياته وتطلعاته.
 - دور العبادة: تعزز القيم الدينية والأخلاقية، وتوفر إطاراً روحياً للهوية. وتساهم في تشكيل الهوية الدينية وتوجيه السلوك الأخلاقي. قد يحدث تكامل أو تعارض بين هذه المؤسسات فالتكامل يكون عندما تتفق المؤسسات في القيم والمعايير التي تنقلها، فإنها تعزز بعضها البعض وتساهم في تشكيل هوية متسقة للفرد. مثال: عندما تدعم الأسرة والمدرسة نفس القيم الأخلاقية. أما التعارض فيكون عندما تختلف القيم والمعايير التي تنقلها المؤسسات، مما قد يؤدي إلى اضطراب في شخصية الفرد وهويته. مثال: عندما تروج وسائل الإعلام لقيم تعارض مع القيم الدينية التي تعلمها الفرد في دور العبادة. وعليه فالتكامل يؤدي إلى هوية متسقة ومستقرة والتعارض يؤدي إلى هوية مضطربة أو متصارعة، حيث يواجه الفرد صعوبة في التوفيق بين القيم المختلفة¹⁶.
- ويميز غدنر بين نوعين من التنشئة الاجتماعية: "التنشئة الأولية التي تحدث في مرحلة الطفولة من خلال الأسرة بشكل أساسي، والتنشئة الثانوية التي تستمر طوال حياة الفرد من خلال المؤسسات الاجتماعية الأخرى"¹⁷
- تؤكد رايت أن: "التنشئة الاجتماعية في العصر الحالي أصبحت أكثر تعقيداً نتيجة تعدد مصادر التأثير وظهور مؤسسات جديدة للتنشئة كالإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، مما يؤثر على عملية تشكيل الهوية لدى الشباب".
- في الماضي، كانت مؤسسات التنشئة الاجتماعية (مثل الأسرة، المدرسة، دور العبادة) هي المصادر الرئيسية للتأثير. اليوم، أضيفت مصادر جديدة مثل الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، مما زاد من تعقيد العملية.
- كما أن ظهور تكنولوجيات جديدة كالإنترنت يوفر الوصول إلى كم هائل من المعلومات والثقافات المختلفة، مما يعرض الشباب لوجهات نظر متنوعة. وهناك وسائل التواصل الاجتماعي التي تخلق مساحات تفاعل جديدة وتؤثر على تشكيل الهوية من خلال التفاعل مع أقران من خلفيات متنوعة.

هذا التعدد في المصادر يجعل عملية تشكيل الهوية أكثر ديناميكية وتنوعا. وقد يؤدي إلى تشكيل هويات متعددة أو هجينة، حيث يدمج الشباب بين القيم والمعايير من مصادر مختلفة. وقد يؤدي تعدد المصادر أيضا إلى تعارض في القيم والمعايير، مما يسبب ارتباكاً أو صراعا في الهوية. ومن جهة أخرى يخلق تحديا يتطلب من الشباب مهارات أعلى في التمييز بين المعلومات وتكوين هوية متسقة.

2. الهوية كتمثل اجتماعي:

العلاقة بين التمثلات الاجتماعية والهوية عميقة ومتعددة الأبعاد. حيث لا تقتصر التمثلات الاجتماعية على كونها انعكاسا للواقع الاجتماعي فحسب، بل تلعب دورا حاسما في تشكيل الهويات الفردية والجماعية، وتحويلها، والحفاظ عليها عبر الزمن. وفي المقابل، تؤثر الهويات الاجتماعية بدورها في الطريقة التي يفسر بها الأفراد والجماعات هذه التمثلات، ويتفاوضون بشأنها، ويعبئونها لخدمة مصالحهم أو قيمهم الذاتية. إذن، لا تسير العلاقة من جانب واحد، بل هي علاقة تفاعلية ديناميكية؛ فالتمثلات الاجتماعية ليست فقط مصدرا للهوية، بل أيضا ساحة للصراع والتفاوض حول المعنى.

ففي كل سياق اجتماعي، تتكون التمثلات الاجتماعية من مجموعة من الأفكار، الصور الذهنية، الخطابات، والقيم التي تنتج وتعيد إنتاجها الجماعات الاجتماعية لتفسير العالم من حولها. ومن خلال هذه التمثلات، يحدد الأفراد موقعهم داخل المجتمع، ويعرفون من هم، ومن الآخرون، وما هو نطاق إمكاناتهم وأدوارهم. وهكذا، تصبح التمثلات الاجتماعية أدوات رمزية تستخدم في بناء الذات، وإعادة تعريف الجماعة، وتحديد موقع كل فرد في البنية الاجتماعية.

ووفقا لموسكوفيسي (Moscovici, 1988)، تشكل الهوية من خلال استيعاب التمثلات الاجتماعية، والتي توفر للأفراد شعورا بالانتماء وإطارا لفهم عالمهم الاجتماعي. وترتبط عملية بناء الهوية ارتباطا وثيقا بالتنشئة الاجتماعية.

الهوية الاجتماعية هي نتيجة مباشرة لتمثيلات يتم تقاسمها داخل مجموعة اجتماعية. فمن جهة، يُرى الأطفال، الذين يولدون داخل مجموعة اجتماعية، وفقاً للتمثيلات الاجتماعية المتداولة في تلك المجموعة، ويُخصص لهم فضاء اجتماعي معين. "فالطفل دائماً ما يكون بناءً اجتماعياً قبل أن يكون واقعاً، لكنه بناء من قبل الآخرين، ومن خلال هذا البناء يمنحه والداه هوية اجتماعية حيث يتعلم الأفراد ويعتمدون الأعراف والقيم والمعتقدات المتجسدة في التمثلات الاجتماعية لمجموعتهم أو مجتمعاتهم... ومن جهة أخرى، فإن انخراط الأفراد في العوالم المحلية يساهم في تشكيل هويتهم الاجتماعية. فالهوية المبنية على تمثيلات مشتركة تعزز الانتماء والتماسك داخل المجموعة..."¹⁸

تعد التمثلات الاجتماعية أدوات رمزية تساهم في بناء الهوية الاجتماعية للأفراد والجماعات، فالأفراد يستخدمون الفئات الاجتماعية لتحديد عضويتهم في مجموعات معينة وتشكيل هوية اجتماعية إيجابية¹⁹. وبصفتها تركيبات رمزية، تساعد التمثلات الاجتماعية الأفراد على فهم العالم، والتفكير في وضعهم الشخصي والاجتماعي، وتحديد مدى قدرتهم على التصرف في سياقات تاريخية مختلفة وتحديد نطاق وإمكانات أفعالهم التاريخية²⁰. وتتجسد هذه التمثلات في السلوكيات اليومية، والإدراك الفردي، وفي خطابات التواصل الرسمي وغير الرسمي من خلال عملية تعرف بـ "الزراعة الرمزية"²¹. وهي العملية التي تدخل فيها المجتمعات أو الأفراد مفاهيم جديدة أو غريبة أو غير مألوفة ضمن إطار رمزي معروف ومألوف لديهم. بمعنى آخر، يحاول الناس فهم الجديد من خلال ربطه بما هو موجود لديهم ثقافيا واجتماعيا. وتشكل التمثلات الاجتماعية للتاريخ بعدا خاصا، حيث توفر للمجتمع موارد رمزية لإحياء نجاحاته السابقة واستخدامها في مواجهة

التحديات الحالية، كما تجيب عن أسئلة وجودية مركزية مثل "من نحن؟"، و"إلى أين نسير؟". وهكذا، تمكن هذه التمثلات الجماعات من الإحساس بأنها صانعة للعالم، وتشكل لديها شعورا بالاستمرارية الزمنية التي تربط الماضي بالحاضر والمستقبل.²²

الهوية والموقع الاجتماعي:

تعتبر التمثلات الاجتماعية أطر مرجعية أساسية يشكل من خلالها الأفراد هوياتهم وتحدد مواقعهم داخل الفضاء الاجتماعي. فهي لا يقتصر دورها على توفير معرفة عن العالم فحسب، بل تمتد إلى كونها أدوات رمزية يوظفها الأفراد لفهم أنفسهم وتحديد علاقاتهم بالآخرين في إطار القضايا الاجتماعية الكبرى. وقد بينَ Doise, W. (1992) كيف يستخدم الأفراد التمثلات الاجتماعية لوضع أنفسهم فيما يتعلق بالآخرين والقضايا الاجتماعية.²³ إن عمليات تصنيف الذات والانتماء الجماعي لا تتم بشكل عفوي، بل تتأثر بالتمثلات الاجتماعية السائدة في البيئة، والتي تعيد إنتاج المواقف والممارسات المرتبطة بالفئات الاجتماعية مثل الجنس، والطبقة، والعرق، والانتماء الثقافي. وفي هذا الإطار، تلعب عملية التثبيت دورا محوريا؛ حيث ترسخ هذه التمثلات في الخطاب العام والسلوكيات اليومية، ما يساهم في تجسيد الهوية وتعزيزها عبر الزمن. ويترتب على ذلك إعادة النظر في مفهوم الواقع ذاته، إذ إن ما يدرك كحقيقة موضوعية ليس إلا بناء اجتماعيا مشتركا، ناتجا عن تفاعل الأفراد مع السياقات الثقافية التي ينتمون إليها. وهكذا، فإن التمثلات الاجتماعية لا تعكس فقط كيف يرى الأفراد أنفسهم والعالم، بل تشكل أيضا البنية التي تحدد العلاقات الاجتماعية وتصوغ المعاني المشتركة للوجود. إنها تعكس الفهم بأن ما ندركه كواقع ينشأ ويشير إلى سياقات اجتماعية محددة. بالنسبة للبشر، لا توجد "حقائق" موضوعية خارج العالم الاجتماعي، هناك فقط معرفة محلية اجتماعية.²⁴

هويات وتمثلات متعددة:

في المجتمعات المعقدة والمتنوعة، يضطر الأفراد إلى التنقل بين هويات متعددة مرتبطة بأبعاد اجتماعية مختلفة مثل الجنس، والعرق، الدين، والانتماء الثقافي، وقد تتعارض التمثلات الاجتماعية المرتبطة بهذه الهويات أحيانا، مما يولد صراعات هوياتية داخلية أو خارجية. وقدمت بركيل (1993) نموذجا لتفسير كيفية تعامل الأفراد مع هذه التناقضات تحت عنوان "نموذج ديناميكيات الحفاظ على الهوية"²⁵، حيث افترضت أن الأفراد يسعون لتحقيق توازن بين ثلاث قيم أساسية: التميز المجتمعي، الاستمرارية الزمنية، والاستقلالية الفردية. وعندما تهدد صراعات الهوية هذا التوازن، يلجأ الأفراد إلى استراتيجيات متنوعة مثل إعادة تقييم أولويات الهوية أو الدمج بينها أو إقصاء مؤقت لهوية معينة.

الهوية الوطنية والتمثلات:

تلعب التمثلات الاجتماعية للأمة، والتاريخ، والثقافة دورا حاسما في بناء وتشكيل الهوية الوطنية. فهي لا تعد مجرد انعكاس للماضي أو الحاضر، بل هي أدوات رمزية يوظفها الأفراد والجماعات لفهم ذاتهم كجزء من أمة، ولإعادة صياغة علاقتهم بها عبر الزمن. وقد درس ليو وهيلتون (Liu & Hilton, 2005) هذا البعد بالتفصيل، حيث بينا كيف تساهم التمثلات الاجتماعية للتاريخ في بناء الانتماء الوطني، وكيف يمكن أن تكون مصدرا للانقسام أو الوحدة بين المجموعات داخل الدولة الواحدة.²⁶

في السياق العربي والإسلامي، نجد أن الذاكرة الجماعية للتاريخ تلعب دوراً مركزياً في تشكيل الهوية الوطنية. فعلى سبيل المثال، في الجزائر، يعاد باستمرار تمثيل تاريخ الثورة التحريرية (1954-1962) ليس فقط كحدث تاريخي، بل كرمز للنضال، والكرامة، والاستقلال. هذه التمثيلات تستخدم في التعليم الرسمي، والخطاب السياسي، والإعلام، وتسهم في تعزيز شعور جماعي بالانتماء الوطني، وتقوية الروابط بين المواطنين حول هوية مشتركة.

أما في العراق أو لبنان، فإن التمثيلات التاريخية قد تكون مصدراً للانقسام بين المجموعات الطائفية أو العرقية. فكل طرف يعيد تمثيل الماضي بطريقة تخدم رؤيته للواقع الحالي: فقد تعتبر فترة الحكم العباسي أو الأموي رمزا للوحدة والازدهار عند مجموعة، بينما تعتبر لدى أخرى مرحلة تسلط فيها أحد الأطراف على الآخر. وهكذا، تتحول التمثيلات الاجتماعية للتاريخ إلى أدوات أيديولوجية تستخدم لتعزيز الانتماء أو لإضعاف الحوار بين المجموعات.

وفي العالم الإسلامي بشكل عام، يظهر هذا الأمر بوضوح في العلاقة بين الهوية الإسلامية المشتركة والهويات القطرية أو القومية. فالتمثيلات الاجتماعية للتاريخ الإسلامي، مثل الخلافة الراشدة أو الدولة العثمانية، تستخدم أحياناً في خطابات سياسية أو دينية لربط المسلمين بمشروع هوياتي واحد، في مقابل تمثيلات أخرى تركز على التنوع الثقافي والقومي داخل العالم الإسلامي.

وهكذا، فإن التمثيلات الاجتماعية للتاريخ ليست فقط سجلاً للأحداث، بل هي أداة رمزية تستخدم لبناء الذات الجماعية وتبرير المواقف السياسية والاجتماعية الحالية، مما يؤثر على كيفية تشكل الهوية الوطنية وعلاقة المجموعات المختلفة داخل الدولة.

الهوية والتمثيلات الجنسية:

تعد التمثيلات الاجتماعية للجنس (النوع الاجتماعي) عاملاً محورياً في تشكيل الهوية الجنسية للأفراد، لكن طبيعة هذه التمثيلات وتأثيرها يختلف باختلاف السياقات الثقافية والاجتماعية. ففي حين تستند المجتمعات الغربية إلى خطاب حديث يركز على المساواة الجندرية، الفردية، وحقوق المرأة، فإن العديد من المجتمعات العربية والإسلامية ما زالت تحافظ على تمثيلات تقليدية مرتبطة بالأدوار الجندرية الثابتة وتوزيع السلطة داخل الأسرة والمجتمع. وقد بين دوفين ولويد (Dohrenwend & Lloyd, 1990) كيف يستوعب الأطفال التمثيلات الجنسانية منذ سن مبكرة، مما يؤثر على تطور هويتهم.²⁷

إن الأطفال يبدأون في استيعاب التمثيلات الجنسانية منذ سن مبكرة جداً، حيث يتعلمون ما هو "مناسب" لكل جنس من السلوك، المهنة، والعلاقات الاجتماعية، مما يؤثر بشكل كبير على كيف يرون أنفسهم وكيف يتوقع منهم الآخرون أن يكونوا.

3. جدلية التمثل والتنشئة الاجتماعية

تؤثر التمثيلات الاجتماعية أيضاً على التنشئة الاجتماعية للأفراد داخل المجتمع. لإنها تلعب دوراً رئيسياً في تشكيل السلوك والمعتقدات والمواقف من خلال توفير إطار لفهم الأعراف والتوقعات الاجتماعية. على سبيل المثال، يمكن أن تؤثر التمثيلات الاجتماعية للنجاح والإنجاز على تطلعات وأهداف الأفراد أثناء عملية التنشئة الاجتماعية.

4. الهوية والتنشئة الاجتماعية

لا يمكن فصل عملية بناء الهوية عن سياقها الاجتماعي، فهي لا تتشكل في فراغ، بل تبنى وتعيد البناء عبر عمليات اجتماعية مستمرة، أهمها التنشئة الاجتماعية. وتعد التنشئة الاجتماعية العملية التي يكتسب من خلالها الفرد المعرفة والقيم والممارسات التي تسمح له بالاندماج في المجتمع والتفاعل معه. وهكذا، فإن دور التنشئة الاجتماعية لا يقتصر على نقل الثقافة فقط، بل يمتد ليشمل تشكيل هوية فردية واجتماعية تكون بمثابة الإطار المرجعي الذي ينظم العلاقة بين الذات والآخر، وبين الفرد والجماعة.

إن كيفية تشكل الهوية لا تتم بشكل عفوي أو منعزل، بل هي نتيجة لتفاعل مستمر بين الفرد ومحيطه الاجتماعي، حيث تساهم مؤسسات التنشئة مثل العائلة، والمدرسة، والإعلام، والأقران في تقديم صور وأطر لفهم الذات والعالم. ومن خلال هذه المؤسسات، يتعلم الفرد من هو؟ وما هو موقعه في المجتمع؟ وكيف يجب أن يتصرف؟، أي أنه يبدأ في بناء هوية ذاتية مبنية على إطار مرجعية اجتماعية مشتركة.

والهوية ليست ثابتة أو نهائية، بل إنها قابلة للتعديل والتغير بحسب التجارب الحياتية التي يمر بها الفرد. فالتجارب الشخصية، سواء كانت إيجابية أو سلبية، تلعب دورا محوريا في إعادة صياغة الهوية. فالمشاركة في حركات اجتماعية، أو السفر إلى بيئة ثقافية مختلفة، أو حتى الصدمات النفسية أو الأزمات العائلية، كلها تترك أثرا في كيفية رؤية الفرد لنفسه وللمجتمع من حوله. وبالتالي، فإن الهوية ديناميكية، وتخضع لعمليات تحديث مستمرة تحت تأثير العوامل البيئية والثقافية والنفسية.

وبالتالي، يمكن اعتبار التنشئة الاجتماعية عملية بناء رمزي للهوية، أي أنها لا تنقل فقط معلومات أو مهارات، بل تكون أيضا صورا رمزية عن الذات والآخرين، وعن العالم. فالطفل لا يتعلم فقط القراءة والكتابة في المدرسة، بل يتعلم أيضا كيف يكون "طالبا جيدا"، ويكتسب تمثلات اجتماعية حول النجاح والفشل، والانتماء والاختلاف. وهكذا، تصبح التنشئة الاجتماعية آلية مركزية في توليد المعاني وتنظيمها داخل البنية الهوياتية للفرد.

كيف تساهم عمليات التنشئة في تشكيل الهوية؟

تلعب التنشئة الاجتماعية دورا محوريا في بناء الهوية الفردية والاجتماعية، فهي العملية التي يكتسب من خلالها الأفراد القيم، والمعتقدات، والممارسات السلوكية التي تمكنهم من الانتماء إلى مجتمع معين وفهم قواعده. وتبدأ هذه العملية منذ الطفولة المبكرة داخل العائلة، وتتواصل عبر مراحل الحياة المختلفة، حيث تتدخل مؤسسات أخرى مثل المدرسة، والإعلام، والأقران، والدولة.

العائلة النواة الأولى في تشكيل الهوية:

العائلة هي النواة الأولى لتنشئة الفرد وتطور شخصيته، وهي أهم وكيل اجتماعي في عملية التنشئة الاجتماعية. فهي البيئة التي يتعلم فيها الطفل أولى مهارات التواصل، ويكتسب من خلالها قيمه ومعتقداته الأساسية، وتتشكل ضمنها صورته عن الذات وعن العالم من حوله. وهكذا، تصبح العائلة الفضاء الأول لبناء الهوية، حيث تبدأ عمليات التعلم الاجتماعي والتوجيه السلوكي منذ المراحل الأولى من العمر. وبحسب راني وآخرون (2016)، فإن دور العائلة لا يقتصر على توفير الاحتياجات المادية أو الدعم العاطفي فقط، بل يمتد إلى وظيفة تنظيمية وتوجيهية، تساعد الطفل والمراهق على فهم أدوارهم المتوقعة في المجتمع، والتكيف مع متطلبات كل مرحلة عمرية. فالوالدان،

بوصفهما المنظمين الرئيسيين في حياة الطفل، يلعبان دوراً محورياً في تحديد الإطار المرجعي الذي ينظر من خلاله الفرد إلى نفسه والعالم، عبر نقل القيم، وتوجيه السلوك، وتقديم النماذج السلوكية.

ويكتسب هذا الدور أهمية خاصة خلال فترة المراهقة، وهي المرحلة التي يمر فيها الفرد بتغيرات جسمية ونفسية واجتماعية عميقة، مما قد يؤدي إلى شعور بالارتباك والغموض بشأن الهوية. وفي هذا السياق، تظهر أهمية الدعم الأسري في توضيح الشكوك، وتعزيز الثقة بالنفس، وتوفير بيئة مستقرة تساهم في بناء هوية متينة وواثقة. فالمرهقون الذين يعيشون في عائلات توفر لهم دعماً عاطفياً وتوجيهاً واضحاً يكونون أكثر قدرة على التعامل مع الضغوط الخارجية، وفهم تغيراتهم الذاتية، واكتساب شعور واضح بالانتماء والهدف.

وبالتالي، فإن العائلة لا تشكل فقط الأساس الذي تنبض من خلاله الهوية بالحياة، بل تعتبر أيضاً مرجعاً أساسياً في إعادة صياغتها ودعم استقرارها خلال فترات التحول الكبرى في حياة الفرد²⁸.

أثبتت الأبحاث باستمرار أن جوانب محددة من ديناميكيات الأسرة تؤثر بشكل كبير على عمليات تكوين الهوية. لقد ثبت أن ممارسات الأبوة والأمومة ودعم الوالدين تمارس تأثيراً قوياً على كيفية بناء المراهقين لهوياتهم. تعمل هذه التأثيرات من خلال مسارات متعددة، بما في ذلك نقل القيم وخصائص الشخصية ووضوح مفهوم الذات بين الأجيال من الآباء إلى الأطفال²⁹.

من المهم أن ندرك أن العلاقة بين التنشئة الاجتماعية العائلية وتكوين الهوية ليست علاقة أحادية الاتجاه، أي أنها لا تسير فقط من الوالدين إلى الطفل. ففي حين أن بعض جوانب الهوية قد تنقل بوضوح من جيل إلى آخر عبر القيم والتوجيهات الأسرية، فإن العديد من التفاعلات داخل الأسرة تتميز بطابع ثنائي الاتجاه، هذا البعد ثنائي الاتجاه يظهر أن المراهقين ليسوا مجرد متلقين سلبيين للتنشئة الاجتماعية، بل هم أفراد نشطون يساهمون في تشكيل بيئتهم الأسرية أثناء مرورهم بعملية بناء هوياتهم. فالمرهق لا يستقبل الرسائل الأسرية ويستوعبها فحسب، بل يقوم أيضاً بتفسيرها، وتحديدتها، وإعادة صياغتها وفقاً لتجاربه الذاتية واحتياجاته النفسية والاجتماعية المتغيرة³⁰.

وهذا ما يخلق تفاعلاً ديناميكياً بين الوالدين والأبناء، حيث تتأثر البيئة الأسرية بتصرفات وآراء المراهق، كما تؤثر فيه. وهكذا، تصبح عملية بناء الهوية نتيجة لهذا الحوار المستمر، الذي يسمح للمراهق بتطوير هوية فردية ومميزة، تكون في الوقت نفسه مرتبطة بالسياق الأسري، لكنها ليست نسخة طبق الأصل منه.

يظهر هذا التفاعل المعقد بين المراهقين وسياقاتهم العائلية أن عمليات بناء الهوية لا تحدث في فراغ، بل هي عمليات متأصلة بعمق في العلاقات الاجتماعية التي تحيط بالفرد منذ نشأته. فالعائلة، باعتبارها أول شبكة اجتماعية يتفاعل معها الفرد، توفر الأساس الذي تنطلق منه كل التأثيرات الاجتماعية الأخرى خلال مراحل النمو اللاحقة³¹.

وبعبارة أخرى، فإن السياق العائلي ليس مجرد خلفية لنمو الهوية، بل هو فضاء حيوي وفاعل يتم فيه تشكيل أولى الصور عن الذات والآخر، وفيه تتبلور المفاهيم الأساسية حول الانتماء، والقيم، والموقع الاجتماعي. ومن خلال التفاعلات اليومية مع الوالدين والإخوة، يتعلم الطفل أو المراهق كيف يفهم نفسه، وكيف يتعامل مع الآخرين، وكيف يفسر العالم من حوله.

ولكن هذه العملية لا تنتهي داخل جدران المنزل فحسب، بل تمتد لتشمل سياقات أوسع مثل المدرسة، والأصدقاء، والفضاء الرقمي، والمجتمع الأوسع. وهكذا، فإن الدور الذي تلعبه الأسرة لا يقتصر على تقديم الإطار الأول للهوية، بل يمتد ليكون الركيزة التي تبنى عليها التفاعلات الاجتماعية المستقبلية ويعد تشكيلها عبر الزمن.

وبالتالي، يمكن اعتبار السياق العائلي نقطة البداية الحاسمة في رحلة بناء الهوية، حيث يبدأ الفرد في تكوين رؤية متماسكة لنفسه، وهي الرؤية التي ستستمر في التطور والتكيف مع كل تفاعل جديد، ومع كل مرحلة جديدة من مراحل النمو النفسي والاجتماعي.

علاقات الأقران والمجموعات الاجتماعية: دور حاسم في بناء الهوية

خارج السياق الأسري، تظهر علاقات الأقران والمجموعات الاجتماعية كمصدر رئيسي لتشكيل هوية المراهقين، حيث تصبح هذه العلاقات عاملاً اجتماعياً محورياً في تطور الذات. فبناء الهوية ليس عملية منفردة أو ذاتية بالكامل، بل هو نتيجة مفاوضات مستمرة بين الفرد والآخرين، كما أشار كليمنسترا وآخرون (2023)، حيث يؤكد الباحثون أن "الأشخاص الذين يحيطون بنا يشكلون من نحن ومن نريد أن نصبح"³².

وخلال فترة المراهقة، يوسع الشباب شبكاتهم الاجتماعية خارج دائرة العائلة، مما يجعل الأقران مصدراً أساسياً للتوجيه الاجتماعي والدعم العاطفي، وبالتالي سياقاً رئيسياً لتطوير الهوية. وقد بينت الدراسات أن مجموعات الأقران تمثل فضاء ديناميكية للتفاعل والتجربة، تسهم بشكل كبير في تشكيل الرؤى الذاتية وتوجيه المسارات التطورية لكل فرد³³.

ومن خلال هذه العلاقات، يبدأ المراهق في ربط إحساسه بالذات بانتمائه الجماعي، وهو ما تفسره نظرية الهوية الاجتماعية بأن الأفراد يعرفون أنفسهم جزئياً من خلال المجموعات التي ينتمون إليها. وهكذا، تتداخل الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية في بنية واحدة، مما يخلق ديناميكية معقدة حيث لا تعكس الانتماءات الجماعية فقط هوية الفرد، بل تساهم أيضاً في تشكيلها.

وأظهرت الدراسات الطولية أن التفاعلات مع الأقران والأصدقاء مرتبطة تطوراً بثلاث عمليات رئيسية في تكوين الهوية، وهي:

1. الالتزام: أي امتلاك المراهق لمبادئ أو اختيارات ثابتة فيما يتعلق بأبعاد معينة من حياته.

2. الاستكشاف المتعمق: البحث النشط عن الخيارات والبدايل المتعلقة بالقيم والهوية.

3. إعادة النظر في الالتزام: إعادة تقييم الاختيارات السابقة بناء على الخبرات الجديدة.

وتشير هذه العلاقة إلى أن العمليات الرمزية التي تنطوي على انتماء المراهق إلى مجموعات اجتماعية ذات معنى يمكن أن تكون محركاً قوياً لتنمية هويته الشخصية³⁴، مما يعزز فكرة أن الهوية الشخصية والاجتماعية متشابكتان بشكل لا ينفصل.

ومن بين المجالات التي يظهر فيها هذا التأثير بوضوح، الهوية الإثنية-العنصرية إذ بينما تعد العائلة عادة أول سياق ينشئ فيه المراهق فهمه لهويته الإثنية، فإن الأقران والبيئة المدرسية يلعبون أدواراً مهمة في تعزيز أو تحدي هذه الفكرة عبر تقديم تجارب مباشرة مرتبطة بالإثنية والهوية³⁵. ففي هذه البيئات، يمر المراهقون بمواقف تجعلهم يعيدون النظر في مفاهيمهم عن الذات، سواء عبر التفاعلات اليومية، أو المقارنات، أو حتى تجارب التمييز التي قد يتعرضون لها.

وتشير الأدلة إلى أن الهوية الإثنية العرقية لا تعتبر مجرد وصفة نفسية، بل إنها تلعب دورا وقائيا مهما، خاصة في مواجهة الضغوط الخارجية مثل التمييز، وتساهم في تحسين النتائج الأكاديمية والصحة البدنية³⁶. ومع ذلك، فإن هذا التأثير الوقائي يختلف باختلاف أبعاد الهوية ومميزات الأفراد الديموغرافية، مما يبرز طبيعة العلاقة المعقدة بين السياقات الاجتماعية وبنية الهوية ونتائج التكيف.

وباختصار، فإن علاقات الأقران والمجموعات الاجتماعية لا تعد فقط مصادر تأثير خارجي، بل هي فضاءات حيوية لاختبار واختبار الهوية. فهي بمثابة مختبرات اجتماعية حيث يمارس المراهقون أدوارا مختلفة، ويحصلون على ردود فعل وتأكيدات أو تحديات من الآخرين، مما يساهم في تكوين رؤية أكثر تماسكا وتكاملا للذات. وهكذا، تظهر هذه العلاقات كيف أن الهوية ليست فقط ما نملكه، بل ما نبنيه مع الآخرين.

السياقات التعليمية وبيئات العمل: فضاءات حيوية لبناء الهوية

إلى جانب العائلة والأقران، تلعب السياقات التعليمية وبيئات العمل دورا محوريا في تشكيل الهوية، حيث تتداخل فيها التنشئة الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية ضمن فضاءين يوفران فرصا غنية لتطوير الذات وتحديد موقع الفرد داخل العالم المهني والاجتماعي. وتعد التنشئة الاجتماعية التنظيمية (Organizational Socialization) آلية تحويلية تساهم في بناء هوية الفرد من خلال مساعدته على فهم الهياكل، الأدوار، والتوقعات التي تحكم المؤسسات التي ينخرط فيها. وقد بين هيروشي هاياشي (2013) أن هذه العملية لا تقتصر على التكيف الوظيفي فقط، بل تمتد إلى تغيير الشخصية الاجتماعية للأفراد، عبر دمج القيم التنظيمية تدريجيا ضمن إطار هويتهم الشخصية³⁷.

ومن بين التجارب المهنية التي تترك أثرا واضحا في تطور الهوية، تبرز التجارب الجديدة في مكان العمل، مثل الدخول الأول إلى الحياة المهنية أو اكتساب مواقع جديدة. ويشرح إنجيوغلو وآخرون (2019) كيف تساهم هذه التجارب في تكوين الهوية عبر ثلاث مسارات رئيسية:

- أولا كـ "أماكن للتعلم وتغيير الهوية"، حيث يواجه الفرد فجوة بين ما يعرفه وما يتطلبه الواقع الجديد، مما يدفعه إلى تعديل رؤيته لنفسه.
- ثانيا باعتبارها "بيئات اجتماعية لتأكيد الهوية"، حيث تتحقق الصورة الذاتية عبر ردود فعل الزملاء والقيادة.
- ثالثا كـ "تجارب مرتبطة بسن الهوية المحتمل"، حيث تظهر الفرص أو التحديات المناسبة لمراحل نمو معينة³⁸.

وهذا النوع من الخبرات يخلق فضاءا للتعلم الذاتي والمهني، يعيد فيه الفرد صياغة هويته استجابة للتغيرات البيئية والتفاعل مع الآخرين. كما تشير الدراسات إلى أن "انتهاكات نزاهة الهوية" – أي الشعور بالانفصال بين ما يفعله الشخص وما يعتقد أنه يجب أن يكون عليه – يمكن أن تكون حافزا قويا لتحديث الهوية³⁹. فعندما يشعر الفرد بأن عمله لا يتماشى مع قيمه أو معتقداته، فإن هذا التوتر يدفعه إلى الانخراط في عمليات إعادة تعريف للذات وإعادة توجيه للهوية.

ولا ينبغي الاستهانة بدور التجارب السلبية أو الإخفاقات في تطوير الهوية، إذ إنها تمثل فرصا لـ "كسر الشعور الذاتي" وتحفيز عملية إعادة بناء ذاتية عميقة⁴⁰. فعندما يمارس الأفراد أدوارا جديدة في بيئات غير مألوفة، فإنهم يكتسبون رؤية أكثر وعيا لقدراتهم، مما يعزز شعورهم بالكفاءة الذاتية ويكشف عن جوانب جديدة من شخصيتهم⁴¹.

ومن الجدير بالذكر أن فترات الانتقال المهني، مثل الترقيات أو التحولات المهنية، تعتبر فترات حدية (liminal periods) تثير تساؤلات واعية حول الذات والتطلعات المستقبلية. وقد بين كل من بوياتيز وآخرون (2021) وإيبارا وآخرون (2010) أن هذه المراحل تحفز عمليات التأمل الذاتي والاختيار الواعي، حيث يتعلم الفرد قيم السياق الجديد ويعيد النظر في انتمائه وموقعه المهني والاجتماعي. ويمكن لهذه التحولات أن تكون رسمية (مثل الترقية)، أو خافتة مثل التغيرات في توقعات الأداء داخل نفس المنصب.

وبالإضافة إلى ذلك، تعد المجموعات المهنية أو التنظيمية التي ينتمي إليها الفرد مصدرا أساسيا للمعنى والانتماء. فعبر هذه المجموعات، يحصل الأفراد على رموز مشتركة، وقيم محددة، وشبكات اجتماعية تشكل إطارا مرجعيا لهوياتهم المهنية. ويشرح بوياتيز وآخرون (2021) كيف يساهم هذا الانتماء في بناء الهوية من خلال:

- بعد المعنى: الناتج عن تبني القيم والمعايير المشتركة.

- وبعد الانتماء: الذي يتيح للمشاركة في مقارنات اجتماعية ويشكل أساسا للهوية الجماعية.

وهكذا، يصبح الانتماء إلى مجموعة مهنية ليس مجرد انتماء اقتصادي، بل عملية بناء رمزية وهوية مستمرة، يدمج من خلالها الفرد خبراته المهنية في بنية هويته العامة.

بالتالي، فإن السياقات التعليمية وبيئات العمل ليست مجرد أماكن لتلقي المهارات التقنية، بل هي فضاءات حيوية لتشكيل الهوية. وفي هذه البيئات، تتفاعل العمليات التنظيمية، والتفاعلات الاجتماعية، والوكالة الفردية لتساهم في بناء هوية مهنية متينة تتكامل مع الهوية العامة للفرد. وهكذا، تصبح التنشئة الاجتماعية في هذه الفضاءات محركا رئيسيا لتطور الذات، ووسيلة لإعادة تعريف الذات في عالم متغير.

الهوية والسياسات الثقافية: بناء ذاتي ديناميكي في إطار اجتماعي

لا يمكن فهم عملية تنمية الهوية بمعزل عن السياقات الثقافية والاجتماعية التي تشكل الإطار الذي يفهم فيه الأفراد أنفسهم ومكانتهم داخل المجتمع. فكلما نضج الفرد، زاد وعيه الذاتي، مما يدفعه إلى استكشاف خصائصه الشخصية وقيمه الداخلية، ومن ثم تكوين تفضيلات جماعية واجتماعية تتماشى مع هذه القيم، ليعيد بذلك صياغة هويته الاجتماعية ضمن شبكة معقدة من التفاعلات والعلاقات.

وبحسب ما أشار إليه الباحث إيميروغلو (2020)، فإن هذه العملية لا تحدث بشكل عفوي أو منعزل، بل تحت تأثير البنية الاجتماعية المحيطة، حيث تسهل الهوية التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، وفي الوقت نفسه تمنح الهياكل الاجتماعية الأفراد هوياتهم من خلال عمليات التنشئة والتواصل الرمزي. وهكذا، تصبح الهوية نتيجة لعلاقة تبادلية مستمرة بين الفرد والمجتمع⁴².

ولعل الدور الأبرز في هذا السياق هو السياق الثقافي، الذي يعد عاملا تكامليا حاسما في تشكيل الهوية. فكل ثقافة لها رؤيتها الخاصة حول الذات، وعلاقتها بالجماعة، وبالتالي حول كيفية بناء الهوية الفردية والجماعية. ويصف براندت (2018) تطور الهوية بأنها ليست "مسارا جامحا"، بل "عملية مستأنسة" تجري داخل بيئة ثقافية محددة، تحدد حدودها ومعطياتها طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد⁴³.

ويتم هذا التشكيل الثقافي للهوية عبر التفاعل الرمزي، وهو المفهوم الذي يشير إلى كيفية بناء المعاني من خلال التفاعل الاجتماعي المستمر. ويشرح قسطنطين (2017) أن الأفراد يطورون عبر هذه التفاعلات معاني رمزية حول أنفسهم، وتتراكم هذه التجارب لتشكيل في النهاية شعورا بالذات يستمد مشروعياته من التقييمات المنعكسة التي يمارسها الآخرون أثناء التفاعل. وهكذا، تبنى الهوية ليس فقط من الداخل، بل أيضا من خلال كيف يرى الآخرون الشخص ويتعاملون معه⁴⁴.

وتظهر دراسة الهوية الإثنية العرقية (Ethnic-Racial Identity - ERI) كيف تؤثر السياقات الثقافية والاجتماعية في تشكيل هوية الأفراد، خاصة في مراحل النمو الحساسة مثل المراهقة. إذ تسلط النماذج الثقافية البيئية الضوء على دور المؤسسات الأساسية – كالعائلة، والأقران، والمدرسة – كعوامل رئيسية في التنشئة الاجتماعية العرقية، والتي تسهم بشكل مباشر في تعزيز تنمية ERI⁴⁵. وتعد هذه المؤسسات بمثابة فضاءات أولية لتجربة الانتماء، والاختلاف، والمواجهة مع التنوع، سواء عبر خطابات الأسرة، أو تفاعلات الأقران، أو الخبرات التعليمية.

وباختصار، فإن العلاقة بين الفرد والسياق الاجتماعي ليست أحادية الاتجاه، بل هي علاقة ثنائية تفاعلية. فالمرهقون لا يتلقون فقط القيم والتصورات من الوالدين أو المجتمع، بل يساهمون أيضا في إعادة صياغة هذه السياقات وتعديلها (Crocetti et al., 2022). وهذا يجعل الهوية بناء ديناميكي يتطور باستمرار عبر التفاعلات في السياقات القريبة (مثل الأسرة والأصدقاء) والبعيدة (مثل المجتمع الأوسع).

الهوية ليست نتاجا فرديا ولا نسخة ثابتة من الواقع الاجتماعي، بل بناء مفتوح ومتعدد الأبعاد، يتشكل عبر التفاعل مع السياقات الثقافية والاجتماعية. ومن هنا، تظهر أهمية دراسة الهوية من منظور ثنائي الاتجاه، يأخذ بعين الاعتبار الفرد وفاعليته في إعادة تشكيل بيئته الاجتماعية، وليس فقط استيعابها. وهكذا، تبقى الهوية دائما قيد البناء والتطوير، تتأثر بالثقافة، وتؤثر فيها، وتتفاعل مع المجتمع، وتعيد تشكيله.

الهوية كعملية بناء نشطة: دور الوكالة الفردية في سياق التنشئة الاجتماعية

رغم أن عمليات التنشئة الاجتماعية تلعب دورا محوريا في تشكيل الهوية، إلا أن الأفراد لا يتفاعلون مع هذه العمليات بسلبية، بل يشاركون بنشاط في اختيار، وتعديل، وإعادة صياغة هوياتهم. وتؤكد النظريات الحديثة على أن الهوية ليست فقط نتيجة للتأثيرات الخارجية، بل هي أيضا منتج للوكالة الفردية، أي القدرة على اتخاذ قرارات واعية والتفاعل بشكل فعال مع البيئة المحيطة.

وتشير نظريات التنشئة الاجتماعية الكلاسيكية إلى أن عملية التعلم الاجتماعي لا تقتصر على مرحلة التكيف الأولى، حيث يكتسب الفرد المعايير والأدوار الاجتماعية السائدة، بل تمتد لتشمل أيضا مرحلة التدخل أو المشاركة الفعالة، حيث يبدأ الأفراد في تبني مواقفهم الخاصة، وقيمهم الذاتية، وممارساتهم المستقلة أثناء تأديتهم لأدوار جديدة في الحياة⁴⁶. وهذا يظهر أن تكوين الهوية لا ينفصل عن التحول من المتلقي السلبي إلى العامل النشط، خاصة مع تقدم الفرد في العمر واكتسابه خبرات متعددة.

ومن بين النماذج النظرية التي تبرز هذا الجانب النشط، يعد نموذج نمط الهوية (Identity Style Inventory) الذي طوره بيرسونسكي من النماذج المميزة. ويركز هذا النموذج على كيفية استكشاف الأفراد للبدائل واتخاذهم القرارات المتعلقة بهوياتهم، مشيرا إلى أن

الهوية ليست بناء جاهزا، بل نتيجة لعمليات تفاوضية واستكشافية مستمرة. إن الأفراد يمتلكون هياكل معرفية تشكلت عبر التفاعل مع بيئاتهم الاجتماعية والمادية، ويستخدمونها بوعي لفهم ذواتهم، وحل المشكلات المرتبطة بالهوية، واتخاذ قرارات تخص توجهاتهم الحياتية⁴⁷.

وقد عرفت نظريات الهوية الحديثة الهوية بأنها " بنية معرفية معقدة، ذاتية البناء، تتكون من مكونات اختارها الفرد باعتبارها مرتبطة بهويته"⁴⁸ وهو تعريف يعطي أهمية قصوى لدور الفرد في اختيار ودمج عناصر الهوية. وهكذا، فإن الهوية ليست مجرد انعكاس للقيم المجتمعية، بل هي نتاج تفاعل ديناميكي بين ما ينقل اجتماعيا وبين ما يختاره الفرد ويعيد تشكيله بنفسه.

وقد أظهرت الدراسات الطولية أن هذا التفاعل ثنائي الاتجاه هو عنصر أساسي في فهم تطور الهوية. فالوالدان والأسرة قد يكونان مصدرا رئيسيا للقيم والمعايير، لكن المراهقين لا يستقبلون هذه الرسائل فحسب، بل يعيدون تفسيرها، ويحاججونها، ويقومون بتحديد ما مرة أخرى ضمن إطار شخصي. كما بينت دراسة كروتشيتي وآخرون (2022) أن تفاعلات المراهقين مع السياقات القريبة (الأسرة، الأصدقاء) والسياقات البعيدة (المجتمع الأوسع، المؤسسات العامة) تظهر دائما ديناميكية تبادلية، حيث يؤثر الفرد في بيئاته الاجتماعية كما تؤثر فيه⁴⁹.

وهكذا، تصبح الهوية ناتجا لتفاعل معقد بين الاختيار الشخصي والتأثيرات الاجتماعية. فهي ليست محددة مسبقا ولا تبنى بعيدا عن العالم الاجتماعي، بل تتطور عبر مسار تفاعلي يجمع بين الاستكشاف الذاتي، والالتزامات الجديدة، والتحديات الثقافية والاجتماعية. ومن هنا، يصبح واضحا أن الهوية ليست فقط "ما يعطى"، بل أيضا "ما يعاد تشكيله".

إن الهوية ليست مجرد نتاج للتنشئة الاجتماعية، ولا هي بناء فردي تماما، بل هي نتيجة لتفاعل ديناميكي بين السياقات الاجتماعية والوكالة الفردية. وعبر هذا التفاعل، يساهم الأفراد في إعادة تعريف أنفسهم وتحديد موقعهم في العالم، ليس بمعزل عن مجتمعهم، بل داخله، ومعه، وضد بعض جوانبه في بعض الأحيان. وهكذا، تصبح الهوية ظاهرة اجتماعية-نفسية ديناميكية، تبنى ويعاد بناؤها باستمرار تحت تأثير الخبرات، والاختيارات، والعلاقات.

خاتمة:

تعد العلاقة بين الهوية والتنشئة الاجتماعية، كما نراها من خلال عدسة التمثلات الاجتماعية، عملية ديناميكية ومعقدة. وتشكل التنشئة الاجتماعية، المتأثرة بالأعراف الثقافية والتفاعلات الاجتماعية، هويات الأفراد من خلال نقل التمثلات الاجتماعية والأعراف والقيم. ومع ذلك، لا يكون الأفراد متلقين سلبيين لهذه التمثلات؛ بل يفسرونها ويتفاوضون بشأنها ويقاومونها بشكل نشط، ويمارسون الوكالة في بناء هوياتهم.

ومن خلال فهم الهوية على أنها بناء قابل للتغيير والتشكيل، ويتم تشكيله باستمرار من خلال ممارسات التنشئة الاجتماعية، يمكننا أن نكتسب نظرة ثاقبة على الطرق المعقدة التي ينتهجها الأفراد في نقلهم داخل بيئتهم الاجتماعية وفهمهم لعالمهم.

في الختام، فإن العلاقة بين الهوية والتنشئة الاجتماعية والتمثلات الاجتماعية هي مجال دراسي معقد ومتعدد الأوجه. من خلال الخوض في الإطار النظري، والتأثير على تكوين الهوية، والتأثير على عمليات التنشئة الاجتماعية، والآثار العملية، يصبح من الواضح أن فهم هذه

العلاقة أمر بالغ الأهمية لفهم ديناميات السلوك البشري والهياكل المجتمعية. يعد إجراء المزيد من البحث والاستكشاف في هذا المجال أمراً ضرورياً لتعزيز فهمنا لكيفية إدراك الأفراد لأنفسهم وتفاعلهم داخل بيئتهم الاجتماعية.

- الإحالات والمراجع:

- ¹ Moscovici, S. (1961). *La psychanalyse, son image et son public*. Presses Universitaires de France.
- ² Denise Jodelet. (1989). *Les représentations social*, P.U.F, paris p47
- ³ Abric, J. C. (1994). *Pratiques sociales et représentations*. Paris : Presses Universitaires de France (PUF).
- ⁴ Vargas, H. (2015). Social Representations and Identity Construction. *Journal of Social Psychology*, 46(2), 105-120
- ⁵ حمدوش، رشيد. (2013). "بناء الهوية عند الشباب الجزائري". *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*، العدد 11، جامعة ورقلة، الجزائر، ص 101
- ⁶ A. MUCCHIELLI, *L'identité*, Ed. PUF Paris 1999
- ⁷ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية العروبة والإسلام.. والغرب مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 4، 2012، ص 10
- ⁸ المرجع نفسه، ص 17
- ⁹ Castells, Manuel. *The Power of Identity*. 2nd ed., Wiley-Blackwell, 2010.p6
- ¹⁰ Jenkins, Richard. *Social Identity*. 2nd ed., Routledge, 2014.
- ¹¹ Tajfel, H. (1974). **Social identity and intergroup behaviour**. *Social science information*, 13(2), 65-93.
- ¹² Berger, P. L., & Luckmann, T. (1966). *The Social Construction of Reality*. Anchor Books.
- ¹³ Durkheim, É. (1975). *Education and Sociology*. In *Sociology and Philosophy*. Free Press.
- ¹⁴ Bandura, A. (1977). *Social Learning Theory*. Prentice Hall.
- ¹⁵ Dubar, C. (2002). *La socialisation : Construction des identités sociales et professionnelles*. Armand Colin.
- ¹⁶ Parsons, T. (1951). *The Social System*. Free Press.
- ¹⁷ أنتوني غدنز. (2005). *علم الاجتماع* (المجلد الأول). (فايز الصباغ، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- ¹⁸ Wagner, W., Duveen, G., Farr, R., Jovchelovitch, S., Lorenzi-Cioldi, F., Marková, I., & Rose, D. (1999). *Theory and method of social representations*. *Asian Journal of Social Psychology*, 2(1), 95–125. <https://doi.org/10.1111/1467-839X.000>
- ¹⁹ Tajfel, H., Turner, J. C., Austin, W. G., & Worchel, S. (1979). An integrative theory of intergroup conflict. *Organizational identity: A reader*, 56(65), 9780203505984-16.
- ²⁰ de Gialdino, I.V. (2015). Work and social representations: Sociological and linguistic analysis of a legislative creation process. *Discourse & Communication*, 9, 331 - 353.
- ²¹ Sammut, G., Andreouli, E., Gaskell, G., & Valsiner, J. (2015). Social representations: a revolutionary paradigm?
- ²² Liu, J.H., & Páez, D. (2019). Social Representations of History as Common Ground for Processes of Intergroup Relations and the Content of Social Identities. *The Handbook of Culture and Psychology*.
- ²³ Doise, W. (1992). L'ancrage dans les études sur les représentations sociales. *Bulletin de psychologie*, 45(405), 189-195.
- ²⁴ Hokkanen, S. (2020). Social representations theory: An approach to studying translators' socio-cognitive processes. *Linguistica Antverpiensia, New Series – Themes in Translation Studies*.
- ²⁵ Breakwell, G. (1993), *Ibid*.
- ²⁶ Liu, J. H., & Hilton, D. J. (2005). How the past weighs on the present: Social representations of history and their role in identity politics. *British Journal of Social Psychology*, 44(4), 537-556.
- ²⁷ Duveen, G., & Lloyd, B. B. (Eds.). (1990). *Ibid*.
- ²⁸ Rani, G.S., & Devi, D.M. (2016). A study on Differences between Parental Support System and Dimensions of Identity Development among Adolescents.
- ²⁹ Crocetti, E., Albarello, F., Meeus, W.H., & Rubini, M. (2022). Identities: A developmental social-psychological perspective. *European Review of Social Psychology*, 34, 161 - 201.
- ³⁰ Crocetti, E., Albarello, F., Meeus, W.H., & Rubini, M. (2022). Identities: A developmental social-psychological perspective. *European Review of Social Psychology*, 34, 161 - 201.
- ³¹ *Ibid*

- ³² Klimstra, T.A., Archer, A., Reitz, A.K., Chung, J.M., & Engelen, B. (2023). There Goes My Hero: The Role of Exemplars in Identity Formation. *Human Development*, 67, 154 - 169.
- ³³ Tarrant, M. (2002). Adolescent Peer Groups and Social Identity. *Social Development*, 11, 110-123.
- ³⁴ Crocetti, E., Karataş, S., Branje, S.J., Bobba, B., & Rubini, M. (2023). Navigating Across Heritage and Destination Cultures: How Personal Identity and Social Identification Processes Relate to Domain-Specific Acculturation Orientations in Adolescence. *Journal of Youth and Adolescence*, 53, 397 - 415.
- ³⁵ Williams, C.D., Byrd, C.M., Quintana, S.M., Anicama, C., Kiang, L., Umaña-Taylor, A.J., Calzada, E.J., Gautier, M.P., Ejese, K., Tuit, N.R., Martinez-Fuentes, S., White, L., Marks, A.K., Rogers, L.O., & Whitesell, N.R. (2020). A Lifespan Model of Ethnic-Racial Identity. *Research in Human Development*, 17, 99 - 129.
- ³⁶ Yip, T., Wang, Y., Mootoo, C., & Mirpuri, S. (2019). Moderating the association between discrimination and adjustment: A meta-analysis of ethnic/racial identity. *Developmental psychology*, 55 6, 1274-1298.
- ³⁷ Hayashi, S. (2013). Organizational Socialization and Collective Self-Esteem as Drivers of Organizational Identification. *International Business Research*, 6, 156.
- ³⁸ Inceoglu, I., Selenko, E., McDowall, A., & Schlachter, S. (2019). (How) Do work placements work? Scrutinizing the quantitative evidence for a theory-driven future research agenda. *Journal of Vocational Behavior*.
- ³⁹ Pratt, M.G., Rockmann, K.W., & Kaufmann, J.B. (2006). Constructing Professional Identity: The Role of Work and Identity Learning Cycles in the Customization of Identity Among Medical Residents. *Academy of Management Journal*, 49, 235-262.
- ⁴⁰ Inceoglu et al., 2019 .Ibid
- ⁴¹ Alvesson, M., & Willmott, H. (2002). Identity regulation as organizational control: Producing the appropriate individual. *Journal of Management Studies*, 39, 619-644.
- ⁴² Emiroğlu, B. (2020). CONSTRUCTION OF SOCIAL IDENTITY AND RELIGION.
- ⁴³ Brandt, P. (2018). Religious and Spiritual Aspects in the Construction of Identity Modelized as a Constellation. *Integrative Psychological & Behavioral Science*, 53, 138 - 157.
- ⁴⁴ Constantine, G.R. (2017). The Biological Basis of Performativity of Identity - Linking Scientific Evidence to Social Theory.
- ⁴⁵ Coll, C.T., Crnic, K.A., Lamberty, G., Wasik, B.H., Jenkins, R.R., García, H.A., & Mcadoo, H. (1996). An integrative model for the study of developmental competencies in minority children. *Child development*, 67 5, 1891-914.
- ⁴⁶ Zahrai, L. (2017). Social Psychological Mechanisms of Acquiring Sociocultural Experience: The Hermeneutic Aspect. *Journal of Vasyi Stefanyk Precarpathian National University*, 4.
- ⁴⁷ Muttaqin, D. (2021). Psychometric Properties of Identity Style Inventory-5 Indonesian Version: Factor Structure, Reliability, and Criterion Validity.
- ⁴⁸ Marcia, J.E. (1966). Development and validation of ego-identity status. *Journal of personality and social psychology*, 3 5, 551-8.
- ⁴⁹ Crocetti, E., Albarello, F., Meeus, W.H., & Rubini, M. (2022). Identities: A developmental social-psychological perspective. *European Review of Social Psychology*, 34, 161 - 201.